

الصبي الذي تعلّم أن يبتسم

استراحة معرفية

قناعي الأول لم يأتِ في هيئة كذبة.

أتى في هيئة ابتسامة.

لم يُجلسني أحد ليقول لي: «أخفِ مَن تكون».

قلّما يتلقى الأطفال تعليمات بهذه الصراحة. الدروس تأتي متنكرة في ثوب الاستحسان. نظرة. إيماءة. صمت يزول حين تتصرف كما ينبغي.

تعلّمتُ مبكراً أن الناس يسترخون حين أبتسم.

بدا الكبار أقل قلقاً.

صارت الغرف أهدأ.

ارتخى التوتر.

اكتشفتُ نوعاً غريباً من القوة. لا قوة البأس. ولا قوة السلطة. قوة أن تجعل الحياة أسهل على الآخرين.

في البداية بدا الأمر بريئاً.

الطفل يريد الوئام كما تريد النبتة ضوء الشمس.

لكن لكل هبة ثمناً خفياً.

كلما ازددتُ براعة في قراءة الطقس العاطفي من حولي، قلّ التفاتي إلى مناخي أنا.

كنت أعرف متى يخيب ظن الآخرين.

كنت أعرف متى يغضبون.

كنت أعرف متى يحتاجون إلى مَن يطمئنهم.

لكنني قلّما توقفتُ لأسأل عمّا أحتاج إليه أنا.

صرتُ ماهراً في التكيّف.

وستنفعني هذه المهارة كثيراً.

بعد سنوات ستعينني على العمل عبر الثقافات والبلدان واللغات والقارات.

لكنها، قبل أن تصير رصيداً مهنياً، كانت ببساطة استراتيجية للبقاء.

صبيّ يحاول أن يحفظ السلام.

مشكلة الأقنعة ليست أنها تخدع الآخرين.

المشكلة أنها تنجح.

تنجح إلى حدّ أن الناس يبدؤون في النهاية بمكافأة الأداء.

وما إن يبدأ الأداء في جلب المودة والاستحسان والانتماء، حتى يصير خلعه خطراً.

تجازف بخسارة الجمهور.

فواصلتُ الابتسام.

لا لأنني كنت سعيداً.

بل لأن ذلك كان منتظَراً مني.

وفي مكان ما داخل ذلك الطفل المبتسم كان يعيش سؤال سيلاحقني عقوداً:

إذا كان الجميع يحبون القناع، فماذا يحلّ بالوجه الذي تحته؟
